البعد التداولي في الخطاب الصوفي
كتاب الوصايا لابن عربي نموذجا

الأستاذة: خيرة عمامرة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة الأغواط– الجزائر

قامت القراءات النقدية للنصوص الأدبية في السنوات الأخيرة على خلفية الاستفادة من المبادئ وإجراءات الدرس اللساني اللغوي، فتأثرت بما يحصل فيه من تغير وتطور دائمين. فشهدت القراءات النقدية تأثرا بالمبادئ البنيوية التي أغرقت في عزل النص عن الظروف الخارجية، بل حتى عن مؤلفه بتبني مقولة" موت المؤلف"، ونتيجة لهذه الصرامة في عزل النص اتجهت القراءة النقدية – وبظهور النظرية التداولية في اللغة – نحو تحرير النص من هذه الصرامة في التحليل إلى الانفتاح عن أفق أرحب يضع في حسبانه تحليل نوايا المتكلم وقصده، والظروف المحيطة بإنتاج النص وتلقيه. وقد أجرى كثير من النقاد المقاربة التداولية على النصوص الأدبية سواء الشعرية منها أو النثرية، والشفوية أو المكتوبة (المسرحية، والشعرية، والروائية،...الخ)، وعنوان هذه الدراسة يندرج ضمن المقاربة التداولية للنصوص الصوفية، باعتبارها تمتلك كل المواصفات النصية كغيرها من النصوص الأدبية الأخرى.

وقد اعتمدت في انجاز هذه الدراسة على جملة من المصادر والمراجع أهمها: وصية بعنوان "كتاب الوصايا" لابن عربي (ضمن كتاب رسائل ابن عربي تحقيق: محمد عزت)، وكتاب "تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة" للدكتورة آمنة بلعلى، وكتاب "ابن عربي مولد لغة جديدة" للدكتورة سعاد الحكيم، إلى جانب مجموعة أخرى من المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمترجمة.

1–تواصلية وصية "كتاب الوصايا":

تنتمي وصية "كتاب الوصايا" لابن عربي إلى فن الوصية، الذي يعتبر شكلا من أشكال التواصل، كونها تمثل هي كذلك "كلاما محددا صادرا عن متكلم محدد، وموجها إلى مخاطب محدد، بلفظ محدد، وفي مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرض تواصلي محدد"[1]. وبوصفها كذلك فإن هذا يفسح لنا المجال لتطبيق الإجراءات التداولية عليها، باعتبار أن التداولية تعنى بتحليل هذا النمط من الخطابات المكتوبة بوصف، وظائف الأقوال الكلامية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام[2].

أما عن الجانب التواصلي في الخطاب الصوفي الذي تنتمي إليه الوصية، فيمكن رصده من خلال "تشكل النص ذاته بعده فعلا خطابيا يتم بين متكلم ومخاطب"[3]. أضف إلى ذلك "العناصر المشتركة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة بما تثيره من الافتراضات المسبقة والقيود التي تؤطر عملية التواصل"[4]. وهذا ما سنحاول فعله فيما سيأتي لأن فهم أي نص يقتضي قدرة الإجابة عن الأسئلة التداولية التالية: لماذا؟ ما الهدف المنجز لأجله؟... من أنتج النص؟...الخ[5].

وأول ما نبدأ به هو إعطاء لمحة حول حياة ابن عربي، وكيفية تشكل التجربة الصوفية عنده وطبيعتها، ولا نعرض هذا من باب التكلم عن سيرته الذاتية في حد ذاتها، بل إن معرفتنا لهذه الجوانب من حياته لها دور في تجلية السياق الخارجي للخطاب. لأن "إهمالنا للسياق قد يؤدي لعدم تمكننا من إدراك بعض ألوان المقال لبعدنا عن المقام الذي قيلت فيه، لهذا وجب تصور هذا المقام وكلما كان التصور دقيقا كان إدراك النص أيسر وفهم علاقاته متاحا[6].

هو شيخ الصوفية العلامة محي الدين بن محمد بن علي بن عربي، عربي النسب من سلالة حاتم الطائي أندلسي المولد والنشأة. "ولد بمرسية سنة **(560هـ)** ثم انتقل مع أبيه إلى اشبيلية وله من العمر ثماني سنوات وفيها نشأ وتعلم، وبرز في القراءات حيث قرأ القرآن مع أبيه بالسبع على يد أبي بكر بن خلف كبير فقهاء اشبيلية، وحين أتمها أسلمه والده إلى جلة من رجال الحديث والفقه، فسمع عنهم في وقت مبكر، وحصل ابن عربي جميع علومه وهو لم يتجاوز من العمر عشرين سنة، وهو الزمن الذي نلمس فيه توجهه إلى الخلوة والتصوف، وأحوال القوم والأرجح أن ذلك كان عام**(587هـ)**. وتصوف ابن عربي لم يأت ثورة على علومه السابقة، بل جاء مرحلة متقدمة تتوج مسلكه الفقهي، وفي حوالي سن الثلاثين

ساح في المغرب الإسلامي (فزار فاس، وبجاية، وتونس)، ثم عاد إلى اشبيلية. لتليها رحلة أخرى إلى المشرق الإسلامي عام **(597هـ)** حيث كان قد بلغ **37** من عمره، وذلك بسبب رؤية كان قد رآها فأقام خلالها في بغداد ومكة المكرمة، ثم استقر أخيرا بدمشق سنة **(630هـ)** وكان آنذاك قد بلغ من العمر ستون سنة، وكانت شهرته قد عمت العالم الإسلامي، وتوفي رحمه الله سنة **(637هـ)** وخلف حوالي مئتين وتسعة وثمانين كتابا ورسالة[7].

وابن عربي حسب قول د.سعاد الحكيم "قد عاش صوفيا، فجاهد نفسه وأماتها بأنواع الخلوات، فأرهق بدنه وحلل تراكيبه بأصناف الرياضات فاستفاق سر وجوده عند نوم البدن والنفس والحس، وقام متهجدا مبصرا يرى من آيات ربه ما يرى"[8]. أما عن طبيعة تجربته الصوفية، وبداياتها فهي قرآنية على حد تعبير د.نصر حامد أبو زيد في قوله "فأول رؤيا يمكن اعتبارها بداية التحول في حياته كانت تجسد سورة يس له في إغماءة مرضية في صورة رجل قوي البنية جميل الطلعة، طيب الرائحة يدفع عنه مخلوقات قبيحة... تريد إيذاءه، فلما أفاق من إغماءة المرض وجد أباه يرتل سورة يس"[9]. فما يلاحظ من قوله أن التجربة الصوفية عند ابن عربي قرآنية، وأن بداياتها كانت مبكرة توجت العلوم التي حصلها.

فابن عربي قد عرف حال متلقي خطابه والغرض الذي يريده منه، فأجابه في بداية وصيته بقوله: "الذي أوصيك به أيها الأخ الإلهي أيدك الله بروح منه ..."[10]، فقد أعلن ابن عربي منذ البداية عن الفئة الخاصة التي استهدفها بخطابه وهي الصوفية" الذين يرحلون إلى أرض تكثر فيها التجليات والنزلات والفتوحات والمكاشفات، ووقت تصفو فيه التوجهات وتصافى فيه النفحات..."[11]. ويظهر ذلك من استعماله للفظ "الأخ الإلهي". فهو يعبر عن تجربته الصوفية الخاصة بلغة خاصة متميزة ومشتركة بينه وبين متلقي خطابه المحدد، الذي يمثل السالك الراغب في السلوك إلى الله سبحانه وتعالى، وقد حرص ابن عربي على إقامة التواصل معه عبر استعماله إستراتيجية حوارية تمثلت في النص من خلال استعماله للنداء، وضمير المخاطب المتصل بالأمر والنهي في عبارات من قبيل:

–"اعلم يا أخي أنه ما انتقش من العلم الإلهي ..."[12].

–"اعلم أن السبب الموصل إلى نيل ما ذكرناه تفرغ الخاطر والقلب من كل علم ومن الفكر المطلوب لإقتناء العلوم..."[13].

–" لا تجالسه على شيء معين ..."[14].

– "بل خذ كل طريقة على انفرادها واجعل الإيمان لقلبك مما أعطاك من معرفة الله بمنزلة البصر لحسك..."[15].

إن هذه العبارات تأتي لتفعيل الدور الخطابي وتمكينه من نفس المخاطب، كما أنها تؤدي وظيفة نفسية تدخل ضمن استمالة المخاطب، وأخرى إقناعية، إضافة إلى أنها تعكس ضمنيا الرغبة من قبل المتكلم في نيل الحظوة والاحترام من أجل الانصياع لكلامه، الذي غالبا ما كان مشتملا على معارف ومفاهيم[16] هي خلاصة ما خرج به ابن عربي من تجربته الصوفية، فكان يعرض أفكاره عبر وصيته على نحو يضمن له أكبر قدر من تجاوب المتلقي وتفاعله مع الوصية والأفكار التي تضمنتها.

والأفكار التي تناولتها الوصية هي عبارة عن مجموعة توجيهات ونصائح صادرة عن شيخ واصل وعارف "يمكنه أن يُسلك مريدا يطلب الوصول، باعتبار أن الطريق الصوفي بأحواله ومقاماته قابل للاكتساب[17]. فنجد ابن عربي يشرع أولا في تقديم شروط التجلي الإلهي، والتي تتمثل عند ابن عربي في تجنب كل ما من شأنه منع التجلي الإلهي، وذلك في قوله: "اعلم أن السبب الموصل إلى نيل ما ذكرناه تفرغ الخاطر والقلب من كل علم من الفكر المطلوب لاقتناء العلوم، ومحو ما كتب ونسيان ما علم، والجلوس مع الله على الصّفا وتجريد الباطن من التعلق بغير ذات الحق جلّ جلاله على ما هو عليه من الإطلاق..."[18]. فعلى السالك إلى الحضرة الإلهية أن يشتغل بذكر الله وحده، ويتجنب أن تتعشق نفسه بما يتجلى له من صور المشاهدات، فإن حصل وأن اشتغل بذلك ولهى عن ذكر الله حرم من مواصلة التجربة، وفي ذلك يقول ابن عربي: "ثم إنه إن فتح لك بابا من أبواب العلم به ممّا لم يتقدمك فيه ذوق وأتاك بلسان روح قدسيّ فلا تردَّه ولا تقف عنده واشتغل بما كنت عليه..."[19].

أما إذا التزم بهذه الشروط تابع سلوكه إلى أن يصل إلى مرحلة الخروج من الحضرة الإلهية والعودة إلى عالم الحس فيحصل لديه الفهم في قوله: "فإن رددت إليك وإلى عالم الحسّ علمت من أين نطقت الرسل وتنزّلت الكتب والصحف وعلمت ما بقي من الأبواب مفتوحا وما سدّ منها ولماذا سدّ منها وعلمت ما تقول وما يُقال لك ورزقت الفهم عن كل شيء..."[20].

فالتصوف عند ابن عربي ينزع إلى "التماس الإيمان والمعرفة عن طريق التصفية بمجاهدة النفس والانقطاع إلى عبادة الله والزهد في متاع الدنيا"[21] ذلك أنه على القلب غشاوة من شهوات الجسم ومشاغل الدنيا ومتى انقشعت تلقت العلم بالهام إلهي على سبيل المكاشفة.

فالطريق إلى بلوغ هذه المرتبة هو تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله، حتى ينكشف الأمر كما انكشف للأنبياء والأولياء، وفاض النور على صدورهم بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها[22].

1–الدور التداولي للإشاريات في "كتاب الوصايا":

تمتلك الإشاريات وظيفتها التداولية من حيث اهتمامها المباشر بالعلاقة بين تركيب اللغات والسياق الذي تستخدم فيه،أي أنها ذات ارتباط مباشر بالعملية التبليغية والخطاب[23]، ولجلاء وظيفتها التداولية في خطاب ابن عربي (في هذه الوصية) وجب تحديد المرجع الذي تحيل عليه، وكذا الدور الذي تلعبه لضمان تحقيق الإطار التداولي للخطاب حيث "تتحول بعض الأدوات الإشارية في السياق الاجتماعي مثل الضمائر وغيرها من وظيفتها الدلالية للدلالة على المرجع، إلى وظيفتها التداولية بانعكاسها مؤشرا على قصد المتكلم، لأن الضمائر الشخصية بمثابة خدم اللغة المتواضعين، حيث يمكن لنا أن نطوعهم للخدمة في إنجاز الوظائف الرمزية ذات المستوى الرفيع[24]. وقد كان للإشاريات الشخصية (الأنا، الأنت، النحن) دور مهم في تجلية قصد ابن عربي من جهة، وفي تأثير الخطاب على المتلقي من جهة ثانية.

1–1 (الأنا /الأنت):

وجه ابن عربي خطابه في مطلع رسالته باستعمال ضمير المتكلم في قوله: "الذي أوصيك به أيها الأخ الإلهي"[25]، و"فقد دللتك على ما فيه سعادتك في الدّارين"[26] حيث تبرز الذات المتكلمة في حوار مع المتلقي، ذلك أنه بمجرد تلفظه باستعمال ضمير المتكلم يكون "قد وضع أمامه وبطريقة آلية شخصا يقابله هو الأنت[27]، يسعى لخلق علاقة حميمية معه بحكم الاشتراك في الاهتمامات، حيث تتجسد درجة قرب المتلقي منه بصفة خاصة في وصفه بـ**(الأخ الإلهي)**[28]. فيأنس المخاطَب لما يبديه له المتكلم من ثقة وعناية[29]. ويبني المخاطِب على إثر حصول هذا الأثر، وعلى مستوى العلاقات الحميمية الناتجة عنها قضاء مصالحه، وتلبية مطالبه بالخطاب من قبل المخاطَب. وتزداد درجة القرب والألفة بتوجيه النصائح باستعمال ضمير المخاطب المفرد (الأنت) المتجسد في فعل الأمر والنهي على الخصوص مثل قوله: "احذر أن تصرف نظرك الفكري..."[30]، وقوله "فلا تتعب خاطرك في التفكير في العلم بالله.."[31]. فاستعمال ابن عربي لضمير المخاطب المفرد يشير "تداوليا إلى أن

المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمية من الناحية الاجتماعية[32]، فرغم أن ابن عربي كان يعلو المتلقي درجة ويمتلك سلطة أقوى منه، باعتباره الشيخ العارف الذي عاش التجربة الصوفية بكل وجوهها، ويريد أن يسلك مريدا يرغب في السلوك إلى الحضرة الإلهية، إلا أنه قد ظهر من خلال استعماله لهذين الضميرين وكأنه في درجة واحدة مع المتلقي، وقد كان سلوكه لهذه الإستراتيجية بهدف استمالة المتلقي وضمان إقباله على الخطاب والعمل به.

2-1 ضمير(النحن):

شكل الضمير المتصل (نا) في "كتاب الوصايا" بديلا للضمير نحن في قوله: "اعلم أن السبب الموصل إلى نيل ما ذكرناه تفرغ الخاطر والقلب من كل علم...، فانظر أيضا ذلك الذوق الغريب فإن دلّ على اسم إلهي من هذه الأسماء التي بين أيدينا سواء...، فإذا تخلصت من كل ما ذكرناه..."[33]. والضمير(**نحن**) ليس مضاعفة لمواضع متشابهة بل هو جمع ضمير "أنا" إلى "لا أنا" وهذه الصيغة تشكل جمعا جديدا من نمط خاص تكون فيه عناصر المجموعة غير متجانسة، واللا أنا يحتوي على الكل ما عدا "أنا"[34]. وفي "كتاب الوصايا" فإن ضمير (النحن) يظهر كما يلي:

نحن = (أنا) +(اللا أنا) ⟸ **أنا(ابن عربي) + اللا أنا(شيوخ الصوفية)**

كما يأتي استعمال ضمير الجماعة المتكلمة في وصية ابن عربي لاستعادة سلطته على الخطاب جزئيا، بعد أن كان قد تنازل عنها في البداية خلال تلفظه بضمير المتكلم المفرد، وذلك لغرض تواصلي (سبق تبيينه)، وعن استعمال ضمائر الأنا والنحن في الكتابة يقول أبو هلال العسكري أيضا: "...وبين من تكتب إليه أنا أفعل كذا... وبين من تكتب إليه نحن نفعل كذا... فأنا من كلام الإخوان والأشباه ... ونحن من كلام الملوك"[35]. فدور الضمير نحن هو إكساب الخطاب أكثر مصداقية وسلطة حتى ينال حظه من القبول، فابن عربي لا ينقل تجربته الصوفية فحسب، بل هو ينقل للمتلقي تجربة يشترك فيها كل الصوفية بصفة عامة. حيث لا يتم تسجيل الاختلاف بينها إلا ضمن الصور المشاهدة واللغة المعبر بها، أما شروط التجربة وهدفها فتبقى مشتركة بين كل الصوفية.

2- الأفعال الكلامية في كتاب الوصايا:

إن النص الأدبي مهما كان طوله فإنه يؤدي فعلا كلاميا واحدا، يسمى بتعبير (فان دايك) فعل الكلام الأكبر أو الجامع **(Le macro-acte du parole)** الذي تشكله سلسلة من الأفعال الكلامية الجزئية[36]. وفي وصية "كتاب الوصايا" فإن إمكانية رصد الأفعال الكلامية تكون من خلال أساليب الخبر والإنشاء[37]، والقيمة التداولية لهذه الأساليب تكمن في أن البلاغيين قد فرقوا بينها انطلاقا من علاقتها بالواقع، وبالنظر إلى مقياس الصدق والكذب الذي يبحث في مدى مطابقة الكلام للواقع الخارجي أو انتفائها[38]، ومن هذا المنطلق فنحن لا ننظر للأساليب الخبرية والإنشائية من حيث كونها "تمثيلا للعالم بل هي إنجاز لأفعال[39]. ذلك أن ابن عربي لم يستعملها لنقل تجربته الصوفية لمتلقي خطابه فحسب، بل لأجل حمل المتلقي على الاتصال بالله تعالى من خلال ممارسة تجربة روحية خاصة عن طريق إتباع شيخ عارف، ولتحقق إنجازية هذه الأفعال وجب توفرها على شروط النجاح التي تكلم عنها سيرل[40] ولا يشترط توفرها كلها قبل التلفظ بالخطاب لأن مجرد "تلفظ المتكلم بالفعل يستلزم ذلك أن الشروط كلها قد توفرت ولو في ذهنه[41].

والفعل الكلامي الأكبر الذي أدته الوصية يكمن في فعل "الإرشاد والتوجه" المنبثق عن تضافر مجموعة من الأفعال الجزئية مثل الأمر والنهي والتقرير والإثبات والنفي والنداء...الخ.

2-1-الأسلوب الخبري:

عرف بأنه "الخطاب التواصلي المكتمل إفاديا الذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية"[42]. وهو يقابل الفعل التقريري بمصطلحات سيرل، وقد استعمل ابن عربي هذا الأسلوب لتقديم مجموعة الخبرات والشروط لحصول الاتصال بالله وذلك في قوله:

- "وهذا القدر من العلم ما هو ممّا ينتقش في العالم الخارج عنك"[43].

-"قلنا ما انتقش في اللوح المحفوظ ولا سطّر القلم فيه إلاّ العلوم التي تنقال ويأخذها النقل وأما ما لا ينقال ممّا يعطيه التجلّي الذي أردناه هنا فما انتقش في العالم أصلا..."[44].

فكل هذه الأمثلة لا يعدو فيها ابن عربي نقل من الخبرات حول التجربة الصوفية، ومن جهة أخرى فإننا نلمس في الوصية ورود بعض الأساليب الخبرية المؤكدة كقوله مثلا:

– "وقد علمه القلم الذي هو العقل الأول ..."[45].

–"فقد دللتك على ما فيه سعادتك في الدّارين وما يؤول إليه نفوس العارفين في النّشأتين"[46].

– "فإن الله أوسع من أن يقيده عقل عن إيمان أو إيمان عن عقل وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من السلوب ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف، لكنّ نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر يشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان..."[47].

فالمؤكدات التي دعمت هذه الأساليب الخبرية السابقة مثل "**إن،قد**" لم ترد باعتبارها ضربا من الزخرف الخارجي، وإنما هي تشكيل لغوي وظيفي بأسلوب جمالي بديع[48] غرضه حمل المتلقي على تصديق ما يرد من أخبار، خاصة تلك المتعلقة بالصور والمشاهدة، وتأتي أهمية هذه الأخبار كونها تصدر عن شيخ عارف قد عاش التجربة الصوفية بكل مشاهداتها وتجلياتها.

2-2-الأسلوب الإنشائي:

عرف بأنه "الخطاب التواصلي المكتمل إفاديا الذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية[49]. وينقسم إلى نوعيين هما:

أ-**الإنشاء الطلبي:** وهو الكلام الذي يستدعي مطلوبا للتحقق مثل: النداء، والاستفهام، الأمر، النهي،...الخ.

ب-الإنشاء غير الطلبي: وهو الكلام الذي لا يستدعي مطلوبا للتحقق مثل: القسم، الشرط، التعجب، المدح والذم، ألفاظ العقود...الخ[50].

والأسلوب الإنشائي بنوعيه يقابل في نظرية الأفعال الكلامية ما يطلق عليه "سيرل" الأمريات والبوحيات والإيقاعيات التي يمكن توضيحها في المخطط التالي:

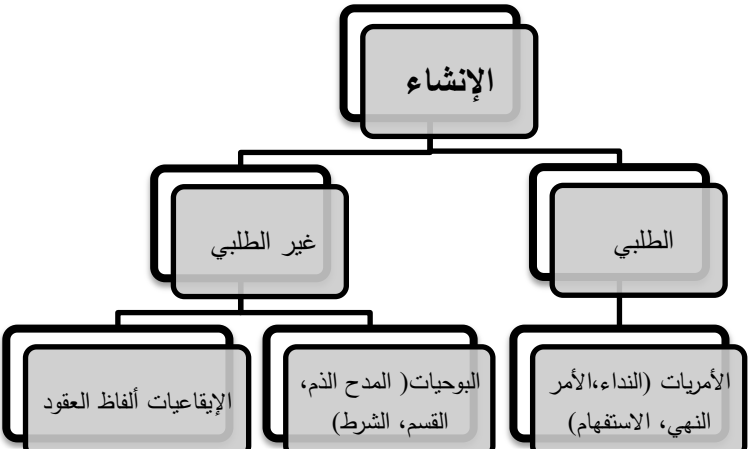

وفي كتاب الوصايا فإن ابن عربي قد استعمل الإنشاء بنوعيه، ويظهر ذلك في الأساليب التالية مثل: النداء، الأمر، النهي، الشرط،...الخ، في توجيه المتلقي وهي كما يلي:

2-2-1-أسلوب النداء: افتتح ابن عربي خطابه بأسلوب النداء الذي تنتمي إلى الأمريات وذلك في قوله:

- "**الذي أوصيك به أيها الأخ الإلهي ...**"[51].
- "**اعلم ياأخي أن العقول بأسرها الملكية والبشرية...**"[52].
- "**واعلم يا أخي أنه ما انتقش من العلم الإلهي في هذا العالم...**"[53]

إن النداء ليس وسيلة تواصلية فحسب، وإنما قد يكون للتعبير عن المشاعر والأفكار[54]. ذلك أنه قد يخرج النداء عن غرضه الحقيقي أي الفعل الكلامي المباشر إلى أغراض بلاغية تستفاد من السياق، ويسمى حينئذ فعل كلامي غير مباشر. وفي المثالين السابقين **(1)**، **(2)** فإن النداء يحتوي على قوتين إنجازيتين:

أولا: قوة إنجازية مباشرة تفيد طلب إقبال المنادى وهي غير مقصودة.

ثانيا: قوة إنجازية غير مباشرة تستفاد من السياق وهي المقصودة، تفيد الاختصاص "الذي أجري على حرف النداء المحذوف، حيث جرد النداء من طلب الإقبال، وخصص مدلوله بما نسب إليه من صفات"[55]. مثل: [**الأخ الإلهي**]، ويمكن تمثيل القوتين الإنجازيتين المتضمنتين في المثالين السابقتين في المخطط التالي :

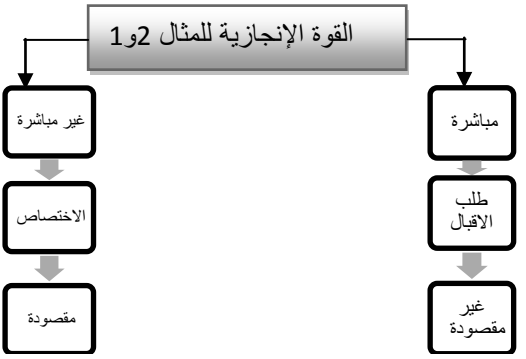

وقد استعمل ابن عربي هذا الأسلوب من أجل توضيح الفئة الخاصة التي ينتمي إليها متلقي خطابه حيث اختص بخطابه من يطلب التجلي الإلهي، لا من يطلب الدنيا.

2-2-2-أسلوب الأمر: يعرف بأنه "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام[56] .وهو بهذا المفهوم ينتمي إلى صنف الأمريات حسب سيرل، والتي تقتضي حصول المتكلم بواسطتها على قيام المستمع بشيء ما، ويشترط في محتواها القضوي أن يكون دالا على الأمر دوما[57]، وبعد رصد أسلوب الأمر في "كتاب الوصايا" ألفينا أنه قد جاء بصيغ متعددة منها فعل الأمر(افعل) وصيغة المضارع المقترن باللام، ونستشف ذلك في قوله:

- "احذر أن تصرف نظرك الفكري فيما أعطاكه الإيمان فتحرم عين اليقين..."[58].
- "قابل بها الحضرة الذاتية من حيث ما تعلم نفسها مقابلة افتقار وتعرية"[59].
- "فانظر أيضا ذلك الذوق الغريب فإن دل على اسم إلهي من هذه الأسماء التي بين أيدينا..."[60].
- "وليكن هجيرك في جلوسك بباطنك الله من غير تخيل بل بتعقل الحروف لا بتخيلها"[61].
- "فعليه فليعتمد..."[62].

فالملاحظ على أسلوب الأمر في الأمثلة السابقة أنها لم تستعمل على سبيل إلزام المتلقي القيام بفعل ما، وإنما كان الهدف من وراء هذا الأسلوب غرض آخر لا يستفاد إلا من السياق الذي يكنفها. وفحوى هذا الغرض هو توجيه ونصح السالك وإرشاده للسلوك إلى الحضرة الإلهية بنجاح.

2-2-3-أسلوب النهي: يعرف بأنه "طلب الكف عن شيء ما على جهة الاستعلاء من الأعلى إلى الأدنى على وجه الإلزام والإيجاب[63]. وللنهي صيغة واحدة هي الفعل المضارع المتصل باللام الناهية، ونستشف أسلوب النهي في كتاب الوصايا في قوله:

-" لا تطلب الجمع بين الطريقتين ..."[64].

-" فلا تتعب خاطرك في التفكير في العلم بالله"[65].

-"فلا تعتمد على ذلك السكون"[66].

فقصد ابن عربي من هذه النواهي لم يكن إلزام المتلقي ترك هذا الفعل على وجه الإلزام، وإنما كان قصده هو التوجيه والإرشاد حتى يتجنب كل ما يمكن أن يعيق مسيرة سلوكه وحصوله على الصفات الإلهية، وبعبارة أخرى فإن ابن عربي لم يستعمل النهي على غرضه الأصلي الذي دلت عليه الصيغة، وإنما بمعنى مجازي يفهم من السياق. وهنا تكمن جمالية كل من الأمر والنهي في الوصية.

2-2-4-أسلوب الشرط: هو أسلوب إنشائي غير طلبي ينتمي إلى صنف البوحيات التي تعد فيها "وجهة الإنجاز تعبير عن الحالة السيكولوجية المخصصة[67]، وقد اجتمع الأسلوب الخبري مع الإنشائي في هذا الأسلوب بغرض توجيه والنصح، ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الوصايا قوله:

- "فإذا كان الأمر على ما ذكرناه فلم يبق إلاّ التهيؤ لما يكون منه من حيث الوهب الإلهيّ"[68].

- "فإذا هيأت المحلّ للتجلّي الإلهيّ فهو أكمل ما يحصل من العلم..."[69].

- "فإذا صفت النفس وصقلت مرآتها فلا تقابل بها العالم ليحصل فيها وينتقش فيها ما في العالم بأسره..."[70].

- "فإن فعلت وعيّنت وفتح عليك لم يحصل سوى ما عيّنت ..."[71].

قد اعتمد ابن عربي على هذا الأسلوب حينما كان بصدد تقديم مجموعة من النصائح حول مراحل التجربة الصوفية، وبيان جوانبها وإلقاء الضوء على الصلات بين الأمور. ذلك أن أسلوب "الشرط ينطوي على معنى ذي طبيعة ثنائية مزدوجة، إذ يكون أحد طرفيه سبب في الآخر، ولا يفهم هذا الآخر إلا بوصفه نتيجة منطقية مترتبة على الأول فلا يحدث إلا به[72]، ومن أمثلة ذلك قوله: "إن فتح لك بابا من أبواب العلم به ممّا لم يتقدّمك فيه

ذوق وأتاك بلسان روح قُدسيّ، فلا تردّه ولا تقف عنده واشتغل بما كنت عليه..."[73]. يريد ابن عربي من هذا أن السالك إذا لم يقف مع الصور التي تتجلى له واشتغل عنها بالذكر واصل السلوك، ورفعت عنه هذه الصور المشاهدة، وتجلت له صور أخرى وهكذا دواليك ...الخ. حتى يكتمل التجلّي. إضافة إلى أن أسلوب الشرط من الجانب الصوتي يكسب الخطاب طبيعة تأثيرية وتنغيمية.

وبعد عرض الأفعال الجزئية التي احتوى عليها الخطاب نلاحظ أن ابن عربي قد زاوج بين الأسلوبين الخبري والإنشائي دون المبالغة في استعمال أحدهما على الآخر، ويعرف هذا النوع من الأساليب الذي يزاوج فيه الكلام بين الخبر والطلب عند البلاغيين العرب بأسلوب الالتفات أو الانصراف عند أسامة بن منقذ « اعلم أن باب الانصراف هو أن يرجع من الخبر إلى الخطاب أو من الخطاب إلى الخبر»[74]. والذي إن كان يكسب الكلام جمالا أخاذا، من خلال ما يحدثه من مفارقات دلالية، وكأن البنية التركيبية لا تقوى إلا باجتماع الشيء وضده[75]، فإن «فائدة هذا الأسلوب من النظم والفنّ من البلاغة استقرار السامع، والأخذ بوجهه، وحمل النفس بتنويع الأسلوب وطراءة الافتنان على الإصغاء للقول، والارتباط بمفهومه، ولو كان أسلوب القول على نهج واحد لم يكن له هذا الوقع، وهذا التأثير»[76]. كما قصد من خلال ذلك إبعاد الملل والسأم على القارئ، ودفعه إلى تقبل الأخبار والتوجيهات، وتحقق القصد الكلي من الخطاب وهو "**التوجيه والإرشاد**".

ثانيا –الآليات الحجاجية في كتاب الوصايا:

المقصود بها ما طوعه ابن عربي لخدمة وجهة نظره عن طريق حمل المتلقي على التسليم بصحة قوله، والإذعان لمراده وتبني ما يطرحه من أفكار ووجهات نظر. ومن بين هذه الآليات ما يلي:

1– المؤكدات:

هي تلك المتعلقة "بتأكيد الجملة الخبرية بحيث تكون دلالة هذه المؤكدات مرتبطة بقصدية المتكلم ومراعاة المقام والحال الذي يلفها"[77]. وهذه المؤكدات هي:

أولا: "قد" تكررت في عدة مواضع منها:

– "وقد علمه القلم الذي هو العقل الأول"[78].

–" فقد دللتك على ما فيه سعادتك في الدّارين وما يؤول إليه نفوس العارفين في النّشأتين"[79].

ثانيا: "**إن**" في قوله:

–" فإن الله أوسع من أن يقيده عقل عن إيمان أو إيمان عن عقل وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من السلوب ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف، لكنّ نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر يشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان..."[80].

ثالثا: ضمير الفصل في قوله :

– "فإن هيأت المحلّ للتجلّي الإلهيّ فهو أكمل ما يحصل من العلم..."[81].

– "العقل الأول الذي هو أول موجود في عالم التدوين والتسطير"[82].

– "فهو أكمل ما يحصل من العلم وهو علم عقول الملائكة والأنبياء والخواصّمن عباد الله"[83].

هذه أهم المؤكدات الواردة في الوصية التي لم يأت استعمالها من قبل ابن عربي باعتبارها مجرد دلالات ومضامين لغوية، وإنما كانت فوق ذلك أفعالا كلامية ترمي إلى صناعة أفعال بالكلمات، من شأنها التأثير في المتلقي بحمله على فعل أو ترك أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام، أو تأكيده أو نفيه ...الخ[84].

2– المحسنات البديعية:

لم يكن لها "دور تزييني في الخطاب، وإنما هي تقوم فوق ذلك بدور حجاجي هدفه الإقناع، والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد"[85]، وذلك من خلال الطباق في قوله:

– "اسم تنزيه أو غير تنزيه..."[86].

– "فإن رددت إليك وإلى عالم الحسّ علمت من أين نطقت الرسل وتنزلت الكتب والصحف وعلمت ما بقي من الأبواب مفتوحا وما سدّ منها ولماذا سدّ منها وعلمت ما تقول وما يقال لك ورزقت الفهم عن كل شيء وأنكرت المعروف وعرف المنكور وأنكرت المنكور وعرفت المعروف وكنت أعلم الخلق بأنك أجهل الخلق"[87].

– "فيه تحيا وفيه تموت"[88].

فقد كان للطباق في الوصية دور هام في زيادة الكلام رونقا وحسنا، إضافة إلى إيضاح دلالته وتقريبه للفهم، وذلك أن ذكر الكلمة وضدها يزيد في وضوحها. كما أن ابن عربي قد زاوج في كثير من حججه بين أساليب الإمتاع وأساليب الإقناع فكانت إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب وتوجيه سلوكه[89]. وبذلك كانت المحسنات البديعية في الوصية قد جمعت بين أسلوبي الإمتاع والإقناع.

الخاتمة:

وفي الأخير فإن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة هي:

– كفاية الإجراءات التداولية لتحليل النصوص الأدبية، وذلك لأنها استطاعت الإجابة عن عديد الأسئلة التي عجزت المقاربات الأدبية السابقة الإجابة عنها.

– الوصية "كتاب الوصايا" لابن عربي تنتمي إلى الخطاب الصوفي، وقد تناولت مجموعة من التوجيهات والنصائح الصادرة عن شيخ واصل وعارف يمكنه أن يسلك مريدا يطلب السلوك إلى الحضرة الإلهية.

– أقام ابن عربي تواصله مع متلقي خطابه من خلال استعماله لاستراتيجيات حوارية كشف عنها باستعماله للنداء، وضمير المخاطب المتصل بالأمر والنهي،...الخ.

– لعبت الإشاريات(ضمير الأنا، الأنت، النحن) دورا مهما في تجلية قصد ابن عربي، وفي تأثير الخطاب على المتلقي من جهة أخرى.

– زخرت وصية "كتاب الوصايا" بأفعال كلامية جزئية متعددة مثل: النداء، والأمر، والنهي، والتقرير، والشرط ساهمت كلها في تشكيل فعل كلامي أكبر هو "**الإرشاد والتوجيه**".

– تولدت عن الإستراتجية الحوارية التي اعتمدها ابن عربي إستراتجية أخرى لا تقل أهمية عنها هي الإستراتجية الإقناعية، وقد تجسدت من خلال عدة آليات منها: آلية التوكيد (باستعمال أن وإن وقد وضمير الفصل)، وكذا المحسنات البديعية التي امتزجت فيها آلية الإقناع مع آلية الإمتاع.

– استجابة النص الصوفي كغيره من النصوص الأدبية الأخرى للإجراءات التداولية.

الهوامش:

1– صحراوي (مسعود)، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، (2005)، ص26.

2– فضل(صلاح)، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية للنشر لونجمان، ط1، (1996)، ص6.

3– بلعلى (آمنة)، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، (2002)، ص6.

4– الشهري، استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية–، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، لبنان، (2004)، ص39.

5–Catherine kerbrat Oreichioni,Les actes de langage dans le discours,Nathan,Paris,(2001),p159.

6– ينظر: عبد المطلب (محمد)، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية للنشر لونجمان، مصر، ط1 ، (1994)، ص307.

7– ينظر: بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط1، (1955)، ص371 وما بعدها.

8– ابن عربي مولد لغة جديدة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، (1411هـ،1991)، ص8.

9– هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، (2004)، ص103.

10– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

11– الحكيم سعاد، ابن عربي مولد لغة جديدة، ص7.

12– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص504.

13– نفسه، ص505.

14– نفسه، ن، ص.

15–نفسه، ص503.

16– ينظر: بلعلى آمنة، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص101.

17– الحكيم سعاد، ابن عربي مولد لغة جديدة، ص48.

18– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص505.

19– نفسه، ص505.

20- نفسه، ص506.

21- الطويل(توفيق)، في تراثنا العربي الإسلامي، دار المعرفة، الكويت، ط(1985)، ص162.

22- ينظر: المرجع نفسه، ص164.

23- ينظر: بلخير(عمر)، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، (2003)، ص68. الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص82.

24-ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص287 و288.

25-ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

26- نفسه، ص506.

27- بلخير عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص72.

28- ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

29 - طه(عبد الرحمٰن)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، (1998)، ص241.

30- ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

31- نفسه ص504.

32-الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص277.

33- المصدر السابق نفسه، ص505.

34- بلخير عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص72.

35- العسكري (أبو هلال)، الصناعتين (الكتابة والشعر)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، (1409هـ، 1989)، ص172.

36- ينظر: العبد (محمد)، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط1، (1426هـ، 2005)، ص280. وينظر أيضا: بلخير عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص168.

37- نظرية الخبر والإنشاء عند العرب تكافئ الأفعال الكلامية عند المعاصرين، ينظر في ذلك كتاب "التداولية عند العلماء العرب للدكتور مسعود صحراوي.

38– ينظر: بوجادي (خليفة)، في اللسانيات التداولية(مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، (2009). ص205.

39– آرمينيكو(فرانسواز)، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، (دت)، ص9.

40– ينظر الشروط الاثنا عشر التي قدمها سيرل ضمن: المرجع السابق نفسه، ص63–66.

41– بلخير عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، ص184.

42– صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص82.

43– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص504.

44– نفسه، ص505.

45– نفسه 505.

46 – نفسه، ص506.

47 – نفسه، ص503.

48– جمعة (حسين)، جمالية الخبر والإنشاء–دراسة بلاغية جمالية نقدية–، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (2005)، ص55.

49– صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص82. – ينظر: بلعلى آمنة، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، ص101.

49– الحكيم سعاد، ابن عربي مولد لغة جديدة، ص48.

49– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص505.

49– نفسه، ص505.

49– نفسه، ص506.

49– ينظر: بلخير(عمر)، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، (2003)، ص68. الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص82.

49– ينظر: الشهري،استراتيجيات الخطاب، ص287 و288.

49– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

49– نفسه، ص506.

49– بلخير عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص72.

49- ابن عربي ،كتاب الوصايا ، ص503 .

49 - طه (عبد الرحمٰن)، اللسان والميزان أوالتكوثر العقلي، المركز الثقافي للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، (1998)، ص241.

49- ابن عربي، كتاب الوصايا ، ص503.

- نفسه ص504

50- ينظر: جمعة، جمالية الخبر والإنشاء، ص100.

51- ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

52- نفسه، ص503.

53 -نفسه، ص504.

54- ينظر: جمعة، جمالية الخبر والإنشاء، ص177.

55-المرجع السابق نفسه، ص209.

56- نفسه، ص103.

57- ينظر: آرمينيكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ص66-67.

58- ابن عربي، كتاب الوصايا، ص503.

59- نفسه، ص505.

60- نفسه، ن.ص.

61- نفسه،ن،ص.

62- نفسه، ن، ص.

63- جمعة حسين، جمالية الخبر والإنشاء، ص120.

64- المصدر السابق نفسه،ص503.

65- نفسه، ص 504.

66- نفسه، ص 506.

67 - آرمينيكو، المقاربة التداولية، ص67.

68- المصدر السابق نفسه، ص504.

69- نفسه، ص504.

70- نفسه، ص504.

71– نفسه، ص505.

72– شلبي (طارق سعد)، دراسات في لغة النص، زهرة المدائن للنشر والتوزيع، (2000)، ص25.

73– المصدر السابق نفسه، ص505.

74 – بن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي)، البديع في البديع، تح: عبدآ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (1408–1987)، ص287.

75 – ينظر: جمعة (حسن)، جمالية الخبر والإنشاء ، ص45–46.

76 – السجلماسي، المنزع البديع، ص443.

77– ينظر: جمعة حسين، جمالية الخبر والإنشاء، ص 84.

78– ابن عربي، كتاب الوصايا ص505.

79– نفسه، ص 506.

80– نفسه، ص 503.

81–نفسه، ص504.

82– نفسه، ص503.

83– نفسه، ص 504.

84– ينظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 217.

85–الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص48.

86– ابن عربي، كتاب الوصايا، ص 505.

87– نفسه، ص 506.

88– نفسه، ص 506.

89– ينظر: طه (عبد الرحمن)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط2، (2000)، ص38.